بهيج نصار(١)

بعد أن أصدرت كتابى الأول «الأساس الاجتماعى للثورة العرابية» والذى لاقى اهتماما لا بأس به. زارنى فى منزلى بهيج نصار، ومعه كتاب بالانجليزية لوالتر لاكور «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط» ودخل مباشرة فى الموضوع، وقال أمراً يجب تكتب تاريخ الحركة الشيوعية بدلا من أن تترك ذلك لهؤلاء المزورين وأشار إلى الكتاب الذى معه. وببساطه قبلت هذه المهمة وحاولت على مدى أكثر من عشرين عاما كنت طوالها وحتى الآن ممتنا لاختياره لى.

أتى بهيج من أسرة محافظة من أسر القاهرة العريقة، الأب تاجر والسكن فى قلب القاهرة القديمة. الدراسة الابتدائية فى مدرسة النحاسين والثانوية فى الخديوية . قدماه عرفت لآلاف المرات الحوارى الجميلة للحسين والنحاسين والدراسة والباطنية. وفى بداية دراسته الثانوية شارك فى مظاهرة ضد تصريح وزير خارجية بريطانيا الذى قال فيه «إن الوقت لم يزل مبكرا لكى تحصل مصر على استقلال كامل» هتف مع الجميع «يسقط هور ابن الطور» شىء بارد لمس رأسه التفت ليجد ضابطا بريطانيا يقتاده بمسدسه إلى منحنى تلقى فيه ضربات عنيفة من شوم الجنود.

يقول بهيج فى حواره معى «من هذه اللحظة عرفت أن المسألة ليست سهلة، بقيت وفدى الهوى، وطنى الميول ولكن بلا طريق محدد».

ويروى فى حواره كنت أحلق عند حلاق ينزوى محله الصغير فى ركن حارة متفرعة من شارع جوهر القائد. الرجل لا يتوقف عن الكلام مع الزبائن وهو لا يغير موضوع حديثه. كان دوما يتحدث عن المسكوف (نسبه إلى موسكو) الذين حولوا بلدهم بعد الثورة البلشفية إلى جنة للفقراء ويروى أساطيرا عن الاتحاد السوفيتى حيث لا فقر ولا ظلم، وفى مرات لاحقة تطور الحديث الذى يصاحب ضربات المقص فى شعره إلى انتصارات السوفييت فى

ستالينجراد ولينينجراد..واختزن بهيج ذلك كله ليدخل كلية الاداب قسم فلسفة وهو ممسك بالخيط الذى تلقفه من هذا الحلاق البسيط.

وفى ردهات كلية الاداب سمع لأول مرة عن الماركسية. ومع زملاء منهم مصطفى سويف ومحمد جعفر تردد على منزل أنور كامل فى شارع قصر العينى ليستمع إلى محاضرات عن الماركسية فهم الآن فى تنظيم اسمه «الخبز والحرية». وربما كان زميله أكثر صلة بأنوركامل، وربما كان على علاقة خفية مع معيد بقسم انجليزى هولويس عوض، أما هو فقد بقى على الحافة، لا هو إقتحم ولا خرج، كان لم يزل يحتاج إلى مزيد من الاستماع ليقرر. لكنه وبرغم كونه طالبا فى قسم فلسفة شعر بالفارق الهائل بين محاضرات مليئة بالغموض المتعالى على فهم البسطاء وبين ما يقوله أمثال حلاق حارته. وظل يتساءل كيف يفهم الحلاق وأمثاله هذه المحاضرات المعقدة عن عبقرية التناقض، وقوانين الجدل وفائض القيمة؟ وفيما هو لم يزل يبحث عن إجابة قبض البوليس على أنور كامل ومحمد جعفر وتوقفت المحاولة. ثم انتحى نحو لويس عوض فى جمعية الجرامفون ومحاورات هى أقرب إلى الفلسفة منها إلى السياسة. وفجأة بدأ طيف موج جديد يلوح فى الجامعة شبان أكثر بساطة وأكثر فعالية وأكثر انفتاحا على الجماهير من ابناء منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) كمال عبدالحليم ، جمال غالى، لطيفة الزيات» وما أن يضع قدمه حتى تفجرت حدتو إلى عدة انقسامات، وتداول الأمر مع عدد من زملائه (محمود العالم- عباس أحمد- أمين عز الدين) واتفقوا على المرور على جميع هذه الانقسامات لاختيار التنظيم الأفضل وقبل أن تكتمل دورة الاستماع تخرج فى الجامعة، أبوه صمم أن يحصل على وظيفة ثابتة ومعاش مضمون فعمل مدرسا فى مغاغة الثانوية لمدة سنتين ثم عاد للقاهرة ليعمل معدا لنشرة الأخبار والبرامج الاخبارية فى الاذاعة، وفور عودته التقى بمحمود العالم الذى ضمه إلى تنظيم صغير جدا هو نواة الحزب الشيوعى المصرى. كل الحماس المختزن فى وجدانه تفجر دفعة واحدة، وشوقه القديم لفعل شىء من أجل الفقراء اندفع فى نشاط متحمس لكنه يصف هذه الفترة «رغم حماسى الشديد كان التنظيم صغيرا جدا فأصبحت كمن يحاول الجرى فى غرفة ضيقة».

وكان فوزى جرجس يحاول أن يطبق حرفا بحرف تجربة لينين فى محاولة توحيد الشيوعيين عبر مجلة تنشر كل الآراء. فأصدر نشرة صغيرة جدا، ورديئة الطباعة جدا

وقليلة التأثير جدا لتدير حوار من أجل الوحدة، وخلال هذه المحاولة قبض على قيادة التنظيم، ولأن زعيم التنظيم فوزى جرجس كان يمارس كل شىء عبر ما كان عند البلاشفة، حيث كان لينين يقول إن من يسجن من القاده يحل محله من هو فى خارج السجن بالضرورة، وبالضرورة أصبح محمود العالم وبهيج نصار مسئولين رغم أنفهما، العالم مسئولا سياسيا وهو مسئول تنظيمى، ويتسع العمل باتساع أفق القيادة لكنه لا يلبث أن يقبض عليه عام ١٩٥٣. وفى السجن التقى بالقيادة القديمة، وكان الخلاف ملتهبا بين فوزى جرجس وابراهيم عرفه ، وبما انه المسئول القادم لتوه من خارج السجن فهو بالمنطق الشكلى المسئول عنهما، ورغم أنفه مرة أخرى أصبح مسئولا عن اثنين من عتاة الشيوعيين يحاربان بعضهما البعض بضراوة. ويفرج عنه بعد شهرين (ضبطت عنده أوراق مخطوطه وقال الطب الشرعى انها ليست بخطه). خرج وهو يلتهب حماسا ضد الديكتاتورية العسكرية، وبعد اربعة اشهر فقط يقبض عليه من جديد. وفى خارج السجن كان محمود العالم وشهدى عطية يستعيدان زمالتهما القديمة ويعملان بجدية من اجل توحيد الشيوعيين وتتوحد خمس منظمات (حدتو- حدتو ت ث - النجم الأحمر- النواة- طليعة الشيوعيين) ويتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. ويأتى بالنبأ إلى السجن وافد جديد هو أنور عبد الملك. ويتوحد رفاق المنظمات داخل السجن ورغم ان حدتو كانت الأغلبية لكنها رشحت لتولى المسئولية بهيج نصار فيخوض من جديد معركة التوازن بين من لايمكن التوازن بينهم، تتوحد الكلمات لكن الارادات الفعلية تتعارض، ويفرج عنه ليجد ان قرارا قد صدر بفصله من الأذاعة وهو فى السجن ويعمل صحفيا فى المساء منذ أن أسسها خالد محيى الدين، ويتوحد الشيوعيون جميعا فى حزب واحد، ويكون بهيج عضوا فى لجنته المركزية لكن كارثة الانقسام تقع وتأتى معها حملة قبض طاغية حيث قبض على مئات الرفاق فى ليلة عيد الميلاد «١ يناير ١٩٥٩» وفى السجن الممتد هذه المرة يرتبط اسم بهيج بتقرير لعب دورا بالغ الأهمية فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية هو تقرير «المجموعة الاشتراكية» ونواصل مع بهيج رحلة نضاله.